القرآن

وقيمته عند الله





تأليف الدكتور
الحاج سليمان فاروق
أونكيجا الألوري المسكين بالله



مكتبة وهبة

القرآن

وقيمته عند الله





تأليف الدكتور

الحاج سليمان فاروق

أونكجبا الألوري الشكيني بالله



مكتبة وهبة







مكتبة العرب الحصرية













بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، وهو الذي أنزل التوراة والأنجيل من قبل هدى للناس وآثر عليهما القرآن ووقره توقيراً ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد * .

إنه قد شاء القدر أن ينزل القرآن العظيم على لغته ولسانه * .

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(الشعراء:192-195).

وبعد

فقد رأينا ـ هذا العام الموافق 2010م ـ أن نضع القرآن الكريم ـ كتاب الله العظيم ـ موضع حديثنا ومحاضرتنا ، نتحدث عن ما للقرآن العظيم من مكانة عالية وقيمة غالية .

وبدلاً من أن يحترم الناس هذا الكتاب ويهتموا به ويُقبلوا عليه فإنهم يعرضون عنه إعراضاً صريحا ويهجرونه هجراً قبيحاً .

ولقد اشتد بهم هذا الهجران وقت تهديد بعض الكنائس في أمريكا بحرق نسخ من القرآن الكريم .

أجل : كيف يمكن القضاء على القرآن الكريم إنه كلام الله المحفوظ بعلمه وقوته ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

ومن أجل هذا وذاك أيها القارئ قمنا بجمع هذه المحاضرة وبنشرها للناس عسى أن يحترموا هذا القرآن الكريم ويتمسكوا به فإن لهم فيه هداية ورشداً .

الدكتور

الحاج سليمان فاروق

القرآن يمهِّد الطريق

إن حاجة الناس إلى كتاب الله تعالى تفوق حاجتهم إلى ما يقيم صلبهم من طعام وشراب وما يحفظ جسدهم من ملبس ومسكن ، لأن النفس الإنسانية إذا لم تجد ما يمهّد لها الطريق إلى الله مزقتها الأهواء والشهوات ، وأورثتها الخلل والاضطراب والحيرة والفزع وباتت على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بها في مهاوى الهلكة والخسران .

إنه قد كان الناس في جاهلية جهلاء ، وضلال عن الطريق السوي ، فبعث الله سيدنا رسول الله * إثر الأنبياء السابقين ، بهذا القرآن العظيم الشأن ، لينقذ الناس من طريق الويلات إلى سبيل السعادات

أما وقد أشار المصطفى * إلى جلالة هذا القرآن ومكانته حين يدلل الأمة الإسلامية على طريق النجاة والتخلص من الهلكة ثم يبيِّن أن القرآن العظيم هو الحل الوحيد لجميع المشاكل التي تعانيها البشرية جمعاء .

عن الحارث الأعور : =مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين الا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث ، قال : أو قد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما إني قد سمعت رسول الله * يقول :=الا إنها ستكون فتنة ، فقلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله, وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمنا به ، من قال به صدق ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ومن تمسك يه هدي الي صراط مستقيم+. رواه الحاكم عن عبد الله ابن مسعود .

إنه وعلى ضوء التمهيد القرآني حسب ما بينه رسول الله * ، سوف ينكشف للقارئ ـ بعد قراءته المتأنية ـ مناهج هذا البحث وهى على ثلاثة أقسام :

الأول : في هذا القسم يرى القارئ كيف اتخذ القرآن مكانته وقيمته عند الله سبحانه .

الثاني : يُرى فيه الاهتمام البالغ بالقرآن الكريم عند المسلمين الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد نبيا ورسولا وبالقرآن دليلا وإماما .

الثالث : يرى القارئ في هذا القسم هؤلاء الذين قصمهم الله جل جلاله حين تركوا القرآن من جبار .

والله نسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل .

القرآن يعرَّف نفسه بنفسه

القرآن الكريم كتاب جمع الله تعالى فيه كل شيء ، وما أنزل الله تعالى كتاباً فيه مكرمة أو منقبة أو فضيلة إلا وسجلها في هذا الكتاب . قال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)(الأنعام:38) .

وفي الواقع إن معرفة مقامة أو قيمة هذا الكتاب صعب للغاية ولا يمكن لأيّ إنسان مهما أوتي من علوم ومعارف أن يقف على حقيقة معرفة القرآن فضلاً عن قيمته ومكانته فإنما حاول علماء الإسلام أن يقربوا للناس معنى هذا الكتاب ، يقول : محمد ابن عبد الله دراز رحمه الله تعالى : =إن تعريف القرآن تعريفاً تحديديا فلا سبيل لذلك+(1).

يقول علماء اللغة : أن لفظ القرآن في الأصل مصدر من قرأ . يُقال قرأ قراءة وقرآنا . ومنه قوله تعالى :)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)(القيامة:17-19).

يقول الزرقاني في كتابه : (مناهل العرفان) : أما لفظ القرآن فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي * . من باب إطلاق المصدر على مفعوله .

القرآن : كما يقول علماء أصول الفقه : هو كلام الله تعالى المعجز المنزل على سيدنا محمد * باللفظ العربي المكتوب في المصاحف ، المتعبَّد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس .

وبتعبير أدق : القرآن الكريم هو الذي عجزت الإنس والجن عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سوره (2) .

والقرآن العظيم لا تصح الصلاة إلا بتلاوة شيء منه ، كما أن مجرد تلاوته عبادة يُثاب عليه المسلم .

والقرآن هو ما ينقله جمع عظيم عن جمع غفير يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب .

وقد علمت ـ الآن أيها القارئ كيف تعددت آراء العلماء في تعريف القرآن الكريم ، وذلك بسبب تعدد الزَّوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن .

ونحن لا نذهب بك بعيداً في تعريف العلماء عن القرآن خوفاً من الخروج عن عنوان البحث : =القرآن وقيمته عند الله+ ولعل عظمة هذا الكتاب أو قيمته تتجلى في أسماء سمى الله تعالى بها هذا الكتاب فيزداد الناس معرفة بقيمة هذا القرآن العظيم ومكانته عند الله سبحانه .

أسماء القرآن

يقول مجد الدين الفيروزآبادي في كتابه (3) : =اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور ، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها ، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي * دلت على علو رتبته وسمو درجته وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته+.

ولقد ذكر العلماء عدة أسماء وأوصاف سمى الله تعالى بها القرآن ، وعبر بها عنه وها هي على ثلاثة أقسام

القسم الأول

أسماء أشار الله تعالى بها إلى ذات الكتاب وحقيقته وهي :

1- الكتاب : قال تعالى : (الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)(يوسف:1).

2- القرآن : قال تعالى : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)(الإسراء:9).

3- كلام الله : قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (التوبة:6).

4- الروح : قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى:52).

5- التنزيل : قال تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الشعراء:192).

6- الأمر : قال تعالى : (ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) (الطلاق:5) .

7- القول : قال تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(القصص:51).

8- الوحي : قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) (الأنبياء:45).

القسم الثاني

أسماء تشير إلى صفات القرآن الذاتية وهي :

1- الكريم : قال تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة:77).

2- المجيد : قال تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (البروج:21-22) .

3- العزيز : قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) (فصلت:41).

4- الحكيم والعلي : قال تعالى : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزخرف:4).

5- الصدق : قال تعالى : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ((الزمر:33).

6- الحق : قال تعالى : (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ((آل عمران:62).

7- المبارك : قال تعالى : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص:29).

8- العجب : قال تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) (الجن:1).

9- العلم : قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة:120) .

القسم الثالث

والأسماء هنا تشير إلى صفات القرآن التأثيرية التي تشير إلى علاقة القرآن بالناس . وهي :

1- الهدى : قال تعالى : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)(البقرة:2).

2- الرحمة : قال تعالى : (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) (لقمان:3).

3- الذكر : قال تعالى : (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُون((الأنبياء:50).

4- الموعظة : قال تعالى: (هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران:138).

5- الشفاء : قال تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ((الإسراء:82).

6- التذكرة : قال تعالى : (كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ) (المدثر:54) .

7- المبين : قال تعالى : (الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)(يوسف:1).

8- البلاغ : قال :(إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)(الأنبياء:106) .

9- البشير والنذير : قال تعالى: (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) (فصلت:4) .

10- البصائر : قال تعالى : (هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (الجاثية:20) .

11- النور : قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ((النساء:174).

12- الفرقان : قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان:1).

وهناك أيضاً أسماء ثلاثة من أسماء القرآن الكريم ، قصر العلماء الحديث عليها لأن القرآن اشتهر بها وهي :

1- القرآن .

2- الكتاب .

3- الفرقان .

1- والقرآن : ورد في ثلاثة وأربعين موضعا . منها قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) (النمل:6).

2- أما لفظ الكتاب ولقد ورد في ثلاثمائة وتسعة عشر موضعاً في سياقات مختلفة منها قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ) (الكهف:1) ، وقوله تعالى : (

وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (الأنعام:92).

3- أما لفظ الفرقان قد ورد في القرآن في ستة مواضع :

قال تعالى : (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) (آل عمران:3-4).

وقوله تعالى :)تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان:1) .

وحاصل القول هنا أن هذه الأسماء الثلاثة هي الأسماء التي اشتهر بها القرآن الكريم إلا أن القرآن والكتاب هما الأشهر من الأسماء الباقية .

وقد ذكر الشيخ عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ أن في تسمية القرآن بهذين الإسمين : القرآن والكتاب حكمة إلهية ، فقال : =روعى في تسميته (قرآنا) كونه متلوا بالألسن ، كما روعى في تسميته (كتابا) كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه ، وفي ذلك إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين ، الصدور والسطور ، فلا ثقة بحفظ حافظ حتى يوافق حفظه الرسم المجمع عليه ولا ثقة بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو ثابت عند حفاظ الأسانيد+.

وبهذه العناية المزدوجة الصدر والسطر ـ بقي القرآن الكريم محفوظاً في حرز حريز وركن مكين تحقيقاً لقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9).

من تأثير علموا مكانة القرآن

لا شك أن القرآن كتاب هداية فصل الله فيه كل ما يحتاجه الإنسان مما تستقيم به حياته ، (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء:9) .

يقول الإمام الشافعي عن هداية القرآن : =ليس تنزل بأحد في الدنيا نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى+.

والقرآن ـ كما قال العلماء ـ كتاب لا يشتمل على هداية البشرية فحسب وإنما فيه أسرار وقوي يلجأ البعض إلى استخدامها عند الضرورة .

وعلى هذا فسروا قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (الرعد:31).

أما كون القرآن الكريم هداية تقود البشرية إلى الغاية التي أنزل من أجلها هذا الكتاب, نرى الأمر فيه واضحاً والأمثلة على ذلك عديدة جلية مثل الضحي ، نختار ـ في هذا المقام ـ مثالاً واحداً فيما قاله الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها .

يقول الحاكم : =يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم ، وقد أشار هذا المعنى حادثة طريفة جرت في فرنسا ، وهو أن فرنسا من أجل القضاء على القرآن الكريم في نفوس شباب الجزائر قامت بتجربة عملية ، قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات ، ادخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية وألبستهن الثياب الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تماماً ، وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة دعى إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون . . ولما ابتدأت الحفلة ، فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري ، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت ، ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً ؟؟ فأجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسي . . =وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا+؟

القرآن يؤثّر

قلنا سابقاً أن نفرا من العلماء استعملوا هذا القرآن العظيم الشأن لقضاء مآربهم وحوائجهم قائلين أن هذا الكتاب اشتمل على أكثر من الهداية والرشاد بل فيه أسرار وقوي واستدلوا على ذلك ببعض أحاديث النبي * .

جاء في الحديث أنه وقعت هذه القصة المشهورة للصحابي الجليل : أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، لما بـعـثـه النبي * في سرية فاستضافوا قوما ولم يضيفوهم ولدغ سيد القوم لدغته حية فقالوا : من يرقى ؟ كانوا لوما ، ما أكرموا الضيوف وهم الصحابة فلدغ سيدهم الكافر سيد القبيلة فجاءوا يقولون . من يرقى ؟ ثم قالوا ، لعل هؤلاء الركب المسلمين الذين نزلوا بجانبنا وما أضفناهم لعلهم عندهم راقى فجاءوا إلى السرية فقالوا هل فيكم من راق ، فقالوا : نعم ولكن لا نرقى لكم إلا بشيء من الغنم اشترطوا شرطاً على هـؤلاء البـخـلاء قـالـوا ما نرقى سيدكم ورئيس قبيلتكم إلا مقابل قطيع من الغنم فقالوا نعطيكم فاقتطعوا لهم من الغنم وعينوها ثم ذهب أحدهم وهو الراوي أبو سعيد رضي الله عنه ، ذهب يقرأ عليه الفاتحة فقرأها ثلاثا أو سبعا فقام هذا اللديغ كأنما نشط من عقال يمشي ما به بأس ولا كأن شيئاً لدغه فانتفع اللديغ بقراءة الفاتحة ، ولذلك النبي * قال لأبي سعيد بعد ما رجعوا إليه يستفتونه عن الغنم الذي آخذوه فأباحه لهم وأخبر أنه حلال لهم قال لأبـي سعـيـد وما يدريك أنها رقية كيف عرفت أنها رقية من الذي أخبرك ؟ تعجب من علم هذا الصحابي وأقره على أن الفاتحة يرقى بها . أخرجه الامام مسلم .

تأثير قرآني آخر :

وهاك تأثيرا تستدل به على عظمة هذا الكتاب مرويا عن مولانا الشيخ المرحوم آدم عبد الله الإلوري : =. . . يحكي من أن سلطانا كافرا من سلاطين نيجيريا الأقدمين ، وكان يؤمن بقدرة السحرة والكهنة على كل شيء ، وجاء علماء الإسلام وقالوا : إن القدرة لله جميعا فأراد هذا السلطان أن يعلم أي الحزبين أصدق قيلا وأقوى سبيلا+.

فجمع السحرة والعلماء في قصره ذات يوم لامتحانهم واختبارهم ووعد الفائزين خيرا وأوعد الخائبين شرا .

امتحنهم في أمرين أولهما إدراك ما في الغيب وثانيهما إنزال المطر في الحال ، طلب إنجاز كل ذلك يوما تلو يوم آخر في الموعد المحدد لكل دين ليظهر المحق والمبطل ، وفي أول يوم طلب إليهم إنزال المطر وحدّد لكل من الكهنة والسحرة ساعات ، ومن العلماء الدعاة ساعات معدودة في ذلك اليوم .

فتقدم السحرة وتلوا عزائمهم وحركوا حبالهم ونفثوا فيها وجمعوا حطبا سحريا وأضرموا فيها نارا وتصاعد الحريق والبخار إلى السماء ثم انتظروا أن تمطر السماء ساعات ولم تمطر حتى قنطوا .

فجاء دور العلماء وطلبوا من السلطان أن يمهلهم حتى يرجعوا من مصلاهم فقال لهم : افعلواما تشاؤون ، فقام العلماء وتوجهوا إلى المصلى لصلاة الاستسقاء وصلوها ودعوا هناك ثم رجعوا وقد قلبوا ملابسهم وتوجهوا إلى دار السلطان وهم ينشدون .

وقولنا الإسلام لا نهدمنه ولا تخذنا ياربنا اليوم والغدا

وما كادوا يفعلون حتى أمطرت السماء عليهم مدراراً سحابة اليوم حتى الليل ، قال السلطان : هذا اليوم لكم وبقي الغد .

وفي اليوم التالي خبأ السلطان بقرة بيضاء في غرفة مظلمة وأغلق عليها الأبواب والنوافذ ، ثم أحضر الفريقين وقال لهما أيكم يخبرني بما في هذه الغرفة ما هو ؟ ما لونه ؟

فتقدم رئيس الكهنة فقال : إن فيها حيوانا ذا قرنين طويلين وذنبا طويلا ولونا أبيض . ثم أقبل على العلماء وسألهم ما تقولون أنتم ؟ فتحير العلماء فيما يقولون ولما استيئسوا خلصوا نجيا وسألوا من يعرف الخط في الرمل من العلماء أن يضرب خطه ففعل ووجد مثل ما قال الكهنة وأرادوا أن يخالفوا المشركين .

ثم بحثوا ونظروا إلى أن اتفقوا على أن يقولوا إن في الغرفة حيوانا أسود ميتا ، فضحك السلطان هزوا فأوجس العلماء في أنفسهم خيفة من الأمر فطلبوا من السلطان أن يمهلهم ساعة فأجابهم فقاموا يسألون الله يصلون ويقرأون القرآن ويدعون ولما أتموا أعادوا الضرب في الخط فكان الجواب كالأول ولكن أوضح من الأول حيث قالوا إن في الغرفة بقرة سوداء ميتة ، ومن ثم أمر السلطان بفتح الغرفة وإحضار ما فيها ففتحوا فإذا بها بقرة سوداء ميتة كما قال العلماء . وقد أكرمهم الله بموت البقرة وتغيّر لونها من البياض إلى السواد . ومن هنا صدق السلطان العلماء ، فأسلم وجهه لله (4)+.

انظر أيها القارئ هذا التأثير القرآني وكيف تتجلى قيمته في الناس بعد قصة لديغ الثعبان وصاحب السلطان المتأثران بهذا الكتاب العظيم .

إلا أن هذا كله ـ في نظر مجموعة من العلماء ـ لا يكفي دليلاً على عظمة القرآن الكريم ومكانته ، لأنه لا يُرجى بعد وقوع التأثير القرآني إلا أحد أمرين اثنين .

الأول : إما أن يدخل الإيمان في قلب المتأثر بالقرآن فيتسبب هذا الإيمان دخوله إلى رحمة الله سبحانه .

الثاني : وإما الكفران بهذا الكتاب فيجني هذا الكفر لصاحبه النقمة والعذاب الشديد ، والقرآن أكرم وأعظم قيمة من أن يكون أداة للتعذيب أو التخريب . قال تعالى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)(النساء:147).

واقرأ معي الحديث النبوي الشريف : جاء في الحديث الصحيح الذي رواه لنا عبد الله بن عطاء عن جدته أم عطاء مولاة الزبير قالت : سمعت الزبير بن العوام يقول : قالت قريش للنبي * : تزعم أنك نبي يوحى إليك ، وإن سليمان سخر له الريح ، وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيى الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا الجبال ويفجر الأرض أنهارا فنتخذها محارث ومزارع ونأكل . والا فادع أن يحيى موتانا فنكلمهم ويكلمونا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا فننحت منها ، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم ، فبينا نحن

حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سرى عنه قال : =والذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألتم ، ولو شئت فكان ، ولكنه خيّرني بين أن تدخلوا في باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لانفسكم ، فتضلوا عن باب الرحمة فاخترت باب الرحمة .

فالقرآن إذن أبعد من أن يكون كتاب تأثير فقط وانما هناك مهمات أخر ينبغي أن ينشغل بها الانسان قبل فوات الأوان ، قال تعالي : (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء:9) .

ثناءات وتأملات

لنر هنا كيف كان العلماء يثنون على كـتـاب الله ، وإن كـانـوا لا يثنون عليه كما أثنى الله تعالى على قرآنه الكريم . إنهم نظروا إلى كتاب الله نظرة تأمل وإجلال وتقديس ، وتدبروا آياته ومعانيه تحقيقاً لقوله سبحانه :)أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِاخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء:82) .

هذا هو الإمام سيد قطب في استحضار عظمة القرآن وتبسيط الثناء عليه وقال : =إن في القرآن كنوزا ضخمة من الهدى والمعرفة وللحركة والتوجيه ، والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز ، ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان ، والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن ، فأما حين أصبح القرآن كتابا يترنم المترنمون بآياته ، فتصل إلى الآذان ، ولا تتعداها إلى القلوب ، فإنه لم يصنع شيئاً ولم ينتفع به أحد ، . لقد ظل كنزا بلا مفتاح+.

ولقد رأينا ـ هنا ـ الدكتور مصطفى السباعي حين يعيب بالمسلمين الذين لا يعرفون قيمة قرآنهم الذي أنزل فيهم وقال : =القرآن في أيدي المسلمين كالسلاح في أيدي الجاهلين . . سلاح معطل لا يستعملونه للدفاع ولا للهجوم ولا للـهـدم ولا للبناء ولا للأخذ ولا للعطاء وهو صالح لذلك كله وأكثر لو كانوا يعلمون+.

ولله در الشاعر العظيم ـ قيل إنه ـ صاحب بردة المديح الإمام البوصيري رحمه الله في آبيات أثنى بها على الـقـرآن الـكـريـم . لا شك أن الأبيات جميلة رائعة تثبت علوقائلها ومستواه في التأمل والتدبر في آيات الله القرآنية ، وها هي :

الله أكبر إن دين محمد

وكتابه أقوى وأقوم قيلا

فهو السراج عندما ذكروا هدى

آياته لا تذكروا إنجيلا

لا تذكروا كتب الاوائل عنده

عرف الهدى لما تجلى دليلا

قرن الثواب بذكره وسماعه

فيمن مضى لم تلق عنه بديلا

وهو الكتاب في عزه وثناءه

هَـــــذى الـنـبـــي فـــاق الـــقـــرون الأولـــــى

لا تعدلوا عن نهجه وضياءه

طلع الصباح فأطفى القنديلا

لعلك أيها القارئ المحترم تلاحظ معي فيما يلي : تقديساً أو تقديراً أعطته امرأة مسلمة هذا القرآن العظيم وذلك حين فرضت على نفسها أن لا تكلم أحدا منذ أربعين عاماً إلا بالقرآن .

المرآة المتكلمة بالقرآن

إنه قد ذكر ابن عباس في كتابه (5):=أن الإمام عبد الله بن المبارك خرج ذات مرة للحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ـ * ـ يقول عبدالله بن المبارك : وبينما أنا أسير في بعض الطريق إذا بي أرى سواد فتميزته فإذا بها امرأة عجوز عليها درع من صوف أسود وخمار من صوف فاقتربت منها فلما اقتربت منها قلت لها :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ـ فقالت : =سلام قولا من رب رحيم+

- فقلت : يرحمك الله يا أمة الله ماذا تصنعين في هذا المكان ؟

ـ فقالت : =ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا+.

- قال : فعلمت من كلامها أنها ضلت الطريق .
- فقلت لها : فإلى أين تريدين . . إلى أين الذهاب إلى أين المسير ؟

ـ فقالت : =سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى+.

- قال : فعلمت من كلامها أنها قد قضت الحج وتريد أن تزور بيت الله المقدس .
- فقلت لها : منذ كم وأنتِ في هذا المكان ؟

ـ فقالت : =ثلاث ليال سويا+.

- فقلت لها : أنا لا أرى معك طعاما ولا شرابا فمن أين تأكلين ؟ .

ـ فقالت : =هو الذي يطعمني ويسقين+.

- فقلت لها : فبماذا تتوضئين إذا جاءك الصلاة ؟

ـ قالت : =فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا+.

- فقلت لها : أن معي بعض الطعام والشراب فهل أعطيكِ منه ؟

ـ فقالت : =ثم أتموا الصيام إلى الليل +

فعلمتُ أنها صائمة .

- فقلت لها : لماذا لا تكلميني مثلما أكلمك ؟

ـ فقالت : =ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد+.

- فقلت لها : هل لي أن احملك على ناقتي هذه ؟

ـ فقالت : =وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم+.

● قال : فانحنت الناقة . . انحنت ناقتي لتركب عليها فلما انحنت الناقة . . .

- قالت : =قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم+.

● قال : فغضضت بصري . .

فلما ركبت .

- قالت : =سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون+.

● قال : فسرت بها قليلاً . .

● فقلت لها : يا أمة الله هل أنتِ متزوجة ؟

- فقالت : =يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم+.

● قال : فسكت ولم اتحدث معها حتى أدركنا القافلة .

● فقلت لها : هذه هي القافلة فمن لك فيها ؟ هل لك فيها أحد وأناديه ؟

- فقالت : =المال والبنون زينة الحياة الدنيا+.

● قال : فعلمت من كلامها أن لها أولاد في القافلة .

● فقلت : لها : وما شأنهم؟ ماذا عملهم؟ ماذا يفعلون في القافلة ؟ أهم مسافرون ؟

- فقالت : =وعلامات وبالنجم هم يهتدون+.

● قال : فعلمت أنهم أدلاء الركب قال فتحركت بها إلى العمارات والقباب التي يجلس بها المسافرون .

● فقلت لها : نحن أمام هذه العمارات فمن لك فيها؟ فمن أنادي؟

- فقالت : =واتخذ الله إبراهيم خليلا+ . . =وكلم الله موسى تكليما+ =يا يحيى خذ الكتاب بقوة+.

● قال : فناديت : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، قال : فأقبل ثلاثة من الشباب كأنهم الأقمار قال : فلما جلسوا بين يدي أمهم .

- قالت : =فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فلياتكم برزق منه+.

تريد أن تضيف عبدالله بن المبارك قال : فذهب أحدهم فجاءنا بطعام وشراب فوضعه أمامي .

فقالت لنا العجوز : =كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية+

● فقلت : طعامكم وشرابكم حرام عليّ حتى تخبروني ما شأن أمكم هذه ؟ ما قصتها ؟

- فقالوا : أن أمنا هذه منذ أربعين سنة وهي لا تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل لسانها فيسخط عليها الرحمَن .

● فقلت : =ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم+.

إننا في هذه القصة ـ أيها القارئ ـ لمسنا فيها ذكاء تتحلى به هذه المرأة الكريمة بل نراها تتزيّن بمهارة لا تفارقها لحظة واحدة أثناء مقابلتها بعبد الله بن المبارك =وفي مثل هذه المهارة يقول

المصطفى الكريم * : =الماهرون بالقرآن مع السفرة الكرام البررة+.

وأما ما يقال في فعل هذه المرأة الكريمة أنه عبث ولم يكن في حُسن الفعال . فإننا سوف لا نوافق ذلك حتى يأتينا سلطان مبين أو برهان متين .

قَسَم عظيم من أجل القرآن العظيم

يقول العلماء أنه : ما الحكمة في قسم الله تعالى المتكرر في القرآن . وهو إن كان لإقنـاع المؤمن فـهو مقتنع بكـلام ربـه ولا يحتاج إليه ، وإن كان لاقناع الكافر فهو لا يقتنع به لأنه مكذب لكل ما يسمعه من القرآن ، فما الحكمة إذن في القسم القرآني ؟

ولعل خير جواب أن العرب كانوا يكثرون من القسم على كلامهم ، والقرآن نزل بلغتهم ، فأكثر الله من استخدام القسم بكلامه تأكيدا له مجاراة لهم ، قال تعالى : (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) (الأنبياء:57)، وقال تعالى أيضاً : (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)(الذاريات:23)

وقد يقال أيضاً لماذا لم يكتف الله في القرآن بقسمه بنفسه وأقسم مراراً بمخلوقاته ؟ قال تعالى :(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (الشـمـس:1) ,(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) (الضـحـى:1-2) ، (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا) (الذاريات:1-2) ، (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ((النجم:1).

والجواب أن العرب كانوا يعظمون تلك المخلوقات ويقسمون بها فحاكاهم القرآن في ذلك للفت العرب إليها والدلالة على قدرته العظمى في خلقها وصنعها وما سخرها له .

استمع إلى زهير بن أبي سلمى حين يقسم بالبيت العتيق .

وأقسمت بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما

على كل حال من سحيل ومبرم

وهذا عربي آخر مات حين سمع المولى عز وجل يقسم في القرآن العظيم :

قال الأصمعي : أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلدا سيفه وبيده قوسه فدنا وسلم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أصمع ، قال : أنت الأصمعي ؟ قلت : نعم قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمَن ، قال وللرحمَن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ، قال : فاتل على منه شيئاً ؛ فقرأت =والذاريات ذروا+ ، إلى قوله : =وفي السماء رزقكم+ ، فقال : ياأصمعي حسبك !! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أعنى على توزيعها ففرقناها على من أقبل وأدبر ثم عمد إلى سيفـه وقـوسـه فكسرهـمـا ووضعهـمـا تحت الرجل وولى نحو البادية وهو يقول =وفي السـمـاء رزقكم وما توعدون+ فمقت نفسي ولمتها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذ أنا بصوت رقيق ، فالتفت إذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر فسلم علي وأخذ بيدي وقال : اتل عليّ كلام الرحمان ، وأجلسني من وراء المقام فقرأت =والذاريات ذروا+ حتى وصلت إلى قـولـه تعالى : =وفي السماء رزقكم وما توعدون+، فقال الأعرابي لقد وجدنا ما وعدنا الرحمَن حقا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ،

يقول الله تبارك وتعالى : ، قال فصاح الأعرابي وقال : يا سبحان الله ! منالذيأغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه (6).

وهكذا نرى القسم في القرآن الكريم على أنواع عديدة وضروب شتى جريا على سنن العرب التي نزل القرآن الكريم على لغتهم . قال تعالى : .

جاء القسم أحياناً بالذات العلية مثل قوله تعالى :) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات:23).

وجاء القسم بأشياء من خلقه سبحانه : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) (التين:1) .

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (الشمس:1).

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ) (الفجر:1-2).

وجاء القسم بالقرآن مثل :

(ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) (ص:1).

(حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الزخرف:1-2).

(ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ) (ق:1) .

وجاء القسم أيضاً في القرآن بلا النافية وفعل القسم مثل قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ((التكوير:15-16) .

وقوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (القيامة:1).

وقوله سبحانه :) لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) (البلد:1) .

أما لما جاء القسم في قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الواقعة:75-80).

علمنا أن للقرآن قيمة وكرامة ومكانة عالية عند الله سبحانه ، ألا ترى أن القسم هنا امتاز بأنه قيل فيه صراحة =وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ+ ، أي استعظم الله تعالى القسم من أجل القرآن العظيم .

لفتة قرآنية

إنه قد لفت هذا القسم العظيم في الآية الكريمة : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الواقعة:75-80) .

أنظار العلماء إلى أن يجهدوا قرائحهم ويبدوا آراءهم في بيان المراد بهذا القسم الإلهي ، ومن بين أولئك العلماء صاحب الكشاف ـ رحمه الله تعالى ـ حين قال : =. . . وفعل القسم يجب أن يكون للحال بمواقع النجوم بمساقطها ومغاربها ، لعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة أو لأنه وقت قيام للمجتهدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين . ونزول الرحمة والرضوان عليهم . فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله : =وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ+ أو أراد بمواقعها منازلها ومسايرها وله تعالى ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف .

ومن العلماء من يرى أن المراد بمواقع النجوم التي أقسم الله تعالى بها في الآية أوقات نزول القرآن نجما نجما وهذا القول منسوب إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، ويقول قتادة : =مواقع النجوم منازلها+، وقال البيضاوي رحمه الله : =إن الله تعالى عظَّم هذا القسم لما في المقسم له من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة+.

ونحن نقول : قد يكون المراد بالقسم العظيم في الآية الكريمة التجلي الإلهي في القرآن الكريم الذي ـ نزل في آخر الزمان ـ على خاتم النبيين وإمام المرسلين .

ويؤيد هذا المعنى الذي ذهبنا نحوه ما قد ثبت لدى كثير من عباد الله الصالحين ، ولنأخذ ـ مثلاً ـ هذا الإمام المبجل الإمام أحمد بن حنبل :

يقول عبدالله بن حنبل : سمعت أبي يقول : =رأيت رب العزة في المنام فقلت : يارب ، ما أفضل ما تقرب به إليك المتقربون ؟

قال : بكلامي يا أحمد ، قلت : يارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم+(7).

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : قال رسول الله * : =الماهر بالقرآن مع السفرة البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق لـه أجـران+، قـال النبي * ؟ =من قرأ القرآن فأعربه ، فله بكل حرف منه عشر حسنات ومن قرأه ولحن فيه فله بكل حرف حسنة+. حديث صحيح .

وعلى كل ، فالقسم المذكور عظيم حقا فإنه إن أريد به نزول القرآن فعظمته واضحة وإذا أريدبه النجوم المعروفة فهي عظيمة لما فيها من مظاهر عظمة الله الدالة على قدرته جل جلاله وإن أريد بهذا القسم العظيم هذا الفعل التجلي الإلهي في القرآن الذي نزل آخر الزمان فهو ـ أيضاً ـ عظيم .

يقول العلماء أن من مظاهر عظمة القرآن تلك الأوصاف التي وصف بها المولى عز وجل هذا القرآن العظيم جوابا للقسم العظيم . يقول سبحانه : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ

تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (الواقعة:75-76) .

ثم بدأ المولى عز وجل يصف القرآن وقال :

- الكريم :

قال الله تعالى في وصف القرآن : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة:77).

فوصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يُعطى الخير الكثير بالدلائل التي تؤدى إلى الحق في الدين . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يُحمد ، والقرآن كريم يُحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، من أسمائه الكريم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من البنات وغيره .

- كتاب مكنون :

وتظهر عظمة القرآن حين يصفه الله تعالى بقوله سبحانه : =في كتاب مكنون+ والمراد بهذا الكتاب الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله تعالى : (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ) (عبس:13-16) .

يقول العلماء أن الآية الكريمة =في كتاب مكنون+ جاءت لترد على من قال : إن الشيطان جاء بهذا القرآن . فأخبر تعالى : أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين . ولا وصولها إليه كما قال تعالى في آية الشعراء :) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) (الشعراء:210-211) .

كتاب مكتوب أي القرآن مستور عن الشياطين . لا قدرة لهم على تغييره . ولا الزيادة والنقص منه واستراقه .

- لا يمسه إلا المطهرون :

إن من الدلائل على عظمة القرآن الكريم صفة الطهارة أي لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون ، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يُدان إلى مسه دلت الآية بتنبيهها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر ، كما ورد بذلك الحديث : قال * : =لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر+ ، بل إن النبي * نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو . أراد به المصحف .

ولهذا قيل أن الآية خبر بمعنى النهي أي : لا يمس القرآن إلا طاهر .

وقد أجاز بعض العلماء رخصة في ذلك لضرورة التعليم والتعلم ، وبعضهم يتشددون في هذا الأمر ويقولون : إذا كان الله تعالى يؤكِّد لنا أن الصحف المطهرة في السماء لا يمسها إلا المطهرون (وهم الملائكة) . فإن صحائف القرآن الكريم التي بأيدي المسلمين لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر .

وللدكتور زغلول النجار مقالة رائعة حول صفة الطهارة التي وصف بها المولى هذا الكتاب وها هي : =. . . ولعل في ذلك ردّاً على أحد شياطين أو مجانين العصر وهو المدعو تيري جونز (Terry Jones) من ولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية الذي وضع على كتاب الوجه (facebook) بشبكة المعلومات العنكبوتية نداء ينضح بالتعصب الأعمى ، وبالكراهية للحق وبالجهل الفاضح ، يدعو هذا النداء الكريه من أعمالهم التعصب من أمثاله إلى حرق الألاف من

نسخ القرآن الكريم في ذكرى الحادي عشر من سبتمبر 2010م، وعندما سئل : هل قرآت القرآن ؟ أجاب بالنفي ، وأكد أنه لا يعرف شيئاً عن محتواه ، ولكنها الرغبة الجامحة في الشهرة الزائفة والكراهية الشديدة للحق وأهله . ووجه كريه من أوجه الحضارة المادية المفلسة . في زمن الفتن الذي نعيشه . ولكن الحق دائماً يعلو ولا يعلى عليه . (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف:21) .

ونحن نتساءل : ماذا حدث بعد حرق آلاف من نسخ القرآن الكريم . . . ؟

إن القرآن الكريم ما زالت عظمته وقيمته تتعالي عند الله سبحانه وعند المسلمين ؛ وصدق الله سبحانه حين قال : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الواقعة:75-80) .

- تنزيل من رب العالمين :

صفة التنزيل هذه إن دلت على شيء ، فإنما يدل علي عظمة القرآن عند الله سبحانه ، وفي هذه الصفة ردٌّ على من قال إن القرآن شعر وسحر أو كهانة ، فقال الحق سبحانه ، بل القرآن : =تنزيل من رب العالمين+.

وختاماً لهذا الموضوع الذي نتحدث فيه عن القسم العظيم نأتي بمقال بعض العلماء :

=واعلم أن الأقسام الواقعة في القرآن ، وإن وردت في صورة تأكيد المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الأصلي بها تعظيم المقسم به لما فيه من الدلالة على اتصافه ـ تعالى ـ بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف : الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة+.

هدف الإسراء والمعراج

إنه قد وجب على الناس أن يعرفوا ويستشعروا عظمة هذا الكتاب وينزلوه منزلته ويقدروه التقدير اللاحق به .

حقيقة إن الإنسان مفطور على الاهتمام بالشيء إن كانت له قيمة ولن يهتم بشيء إلا إذا عرف قيمته ووقف على أهميته ، وعلى هذا الأساس قد تأمل العلماء قصة الإسراء برسول الله * من مكة المكرمة إلى الأقصى واجتماعه بالأنبياء وإمامته لهم ، ثم عروجه إلى السماء ، وقالوا إن سورة الإسراء هي أكثر سورة ذكرت فيها لفظة القرآن والكتاب ، وفي ذلك ـ إذن ـ دلالة على عظمة هذا القرآن العظيم وكأن آية الإسراء ـ في نظرهم ـ تنقل للأمة بأسرها رسالة :=أنتم يا أمة محمد مسؤلون عن هذا الكتاب ، فاستشعروا قيمته وإياكم أن تفرطوا فيه كما فعلت الأمم السابقة فيستبدلكم كما استبدلهم+.

وللأسف الشديد أن القرآن الكريم لم يقع موضع اهتمام الناس بالرغم من أن هذا القرآن اشتمل على ما يهديهم إلى الرشد وعلى ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ، ولله در القائل :

كلام قديم لا يملّ سماعه

تنزّه عن قول وفعل ونية

به اشتفى من كل داء ونوره

دليل لعقلي عند جهلي وجبرتي

فيارب متعنا بسر حروفه

ونوّر به قلبي وسمعي ومقلتي

وقال آخر :

أيا حافظ القرآن اسعد بحفظه

وداوم عليه فالتلاوة مغنم

تفز من المولى بعفو ورحمة

ومن غير رب الناس للناس يرحم

ورتل لنا الآيات في صوت خاشع

وجوده بالأحكام ذلك أعظم

وإن شئت فاقرأ ما تيسر قانتا

قراءته تشفي النفوس وترنم

فلا تهجروا هذا الكتاب تناسيا

فكم فيه من خير لمن لا يعلم
أتانا به خير الأنام محمد
ليرشدنا للخير والخير أعظم
وصلوا على طه الأمين فإنه
رسول الهدى للهدى جاء يتمم

ما هذا الهجران لهذا القرآن ؟

يقول الحق سبحانه مخبرا عن رسوله ونبيه ـ محمد * ـ دائما إلى يوم القيامة أنه قال : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان:30) .

إنه قد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه كما قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)(فصلت:26).

- مسألة :

ذهب العلماء إلى تفسير قوله تعالى : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان:30) .

وقالوا : هل حقا أن النبي * شكا قومه إلى الله تعالى ، بما دلّ عليه ظاهر هذه الآية ؟ وكيف تتناسب هذه الشكاية منه * مع مكارم الأخلاق التي بعثه الله تعالى ليتمَمها ؟

فأجاب قائل منهم : =إن قول الرسول يارب إنما يقوله يوم القيامة أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني+. واستدلوا على ذلك بما روى لنا أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي * : =من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجورا فاقض بيني وبينه+ ذكره الثعلبي .

وقال آخرون : =وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون ، بل المقصود بالآية الكريمة تعظيم شكايته وتخويف قومه ، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حلّ بهم العذاب ولم يمهلوا+(8).

ألا ترى ـ مثلا ـ سيدنا نوحا عليه السلام لما كان قومه قد بلغوا الغاية في الغباء والجهالة والعناد والطغيان قدّم إلى الله تعالى هذه الشكوى وقال : (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) (نوح:21-24) .

وكذلك شكا سيدنا موسى عليه السلام قومه حين استكبروا ، قال تعالى : (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (يونس:88-89) .

أما المصطفى الكريم * بالرغم من عناد وشغب وأنواع البلاء التي يعانيها من الناس فليس هناك شكوى وإنما قال قولته المشهورة : اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون . فليس في الاية اذن ما يدل دلالة واضحة أنه صلي الله عليه وسلم شكا قومه .

ولأن المصطفى * قال : في حديثه الشريف : =إن تؤمنوا بما جئت به يكن حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوا عليّ قولى صبرت حتى يحكم الله بيني وبينكم+.

يقول هنا ابن القيم في كتاب الفوائد : =الهاجرون لكتاب الله أصناف وأنواع وعلى المؤمن أن يربأ بنفسه أن يكون داخلا تحت أي صنف منهم بوقوعه في أحد أنواع هجر القرآن+.

هجر القرآن أنواع

1- هجر قراءته وسماعه .

2- هجر تدبره وتفهمه .

3- هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه .

4- هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه .

5- هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها .

ونحن هنا ـ قد نزيد القارئ بيانا حول ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى . ونقول :

1- هجر قراءته وسماعه :

إن المسلمين اليوم هجروا قراءة القرآن الكريم وأهملوا تعاليمها ولم يهتموا بها بقدر ما يعوّدون أبناءهم على تعاليم الغرب وثقافتهم أما وقد بيّن المصطفى الكريم على أهميه القرآن وقراءته ، في كثير من أحاديثه النبوية الشريفة : =اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه+ . رواه مسلم .

وفي حديث آخر : =الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران+. رواه البخاري .

إنه يجب على المسلمين أن يهتموا ويقبلوا على قراءة القرآن ولو بقدر بسيط ، قال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (

(المزمل:20) .

وإلى حكاية فيها حثّ على سماع القرآن والإصغاء إليه .

= يُحكى أن رجلين اختصما في أمر بينهما ، فهمّ أحدهما بقتل أخيه ليخلو له الجوّ بعد موته ، ولما قضى عليه ، بعد تنفيذ الخطة المدبرة ضده ، بدأ يزور ـ كل يوم ـ مقامه ومقبرته ليقرأ عليه القرآن ، فاختار من القرآن الآية التي تقول : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) (الحاقة:30-32) .

إنه يقرأ هذه الآيات المختارة ظنّاً منه أوطلبامن الله أن يضاعف له العذاب في المقبرة .

فجاءت النتيجة بالعكس وذلك حين رأى في المنام أن المولى الكريم قد تغمّد هذا القتيل بنعمته ورحمته ، وذلك حين استمع القتيل إلى قراءة القرآن وأصغي إليه ، وصدق الله تعالى حين قال : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(الأعراف:204).

ولله در الشاعر حيث يحث أبناء المسلمين على أن يقبلوا على القرآن ولا يعرضوا عنه .

يابني الإسلام هذا كنزكم

إنه منهاج رب العالمين

فاجعلوا القرآن دستورا لكم

تفلحوا والله يهدى المفلحين

ما لنا اليوم هجرنا هديه

واقتفينا نهج قوم فاسقين

نحن بالقرآن كنا قوة

لم تهن للكفر أو للغاصبين

وغدا القرآن في أبناءه

كيتيم بين قوم حاسدين

أحسنوا لله في أعمالكم

لا يضيع الله أجر المحسنين

2- هجر تدبره وتفهمه :

يقول العلماء أن ترك التدبر في القرآن وتفهمه نوع من هجران كتاب الله وإهماله ، وعلى هذا نرى القرآن نفسه ينهى عن الإعراض عنه ثم يخبر الناس أن القرآن لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تضاد ولا تعارض . يقول الحق سبحانه : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء:82) . ، وقوله سبحانه وتعالى أيضاً : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:24). وعلى المسلمين أن يجعلوا المصطفى الكريم * أسوة لهم في تفهم القرآن وتدبره .

عن عبد الله ين مسعود قال : قال لي رسول الله * : =أقرأ عليّ+ قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : =إني أحب أن أسمعه من غيري+ فقرأت عليه حتى بلغت : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) (النساء:41) . قال : رأيت عينيه تذرفان =رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

لا شك أن عينيه الشريفتين تفيضان وتذرفان نتيجة تدبره وتفهمه معاني الآيات القرآنية أيْ استحضر النبي * عن طريق هذا التدبر مشاهد القيامة .

3- هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه :

إنه وفي هذه الأيام أصبح الوقوف عند حلال القرآن أمرا صعبا على كثير من الناس وكذلك صار تعاطيهم للمحرمات شيئا هينا ، بالرغم من أن القرآن يدعوهم إلى ما يعود عليهم بالنفع والخير ، وفيما يلي نرى كيف انتشر الفساد في جميع البلاد وخاصة بلاد الغرب نتيجة البُعد أو الإعراض عن العمل بالقرآن الكريم .

يقول الحق سبحانه :

أولاً :(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (الروم:22) .

إن المولى عزّ وجلّ بيّن للناس أنه خلق لهم من جنسهم أزواجا ليسكنوا إليها ويميل بعضهم إلى بعض حيث أن الجنس إلى الجنس أميل والنوع إلى النوع أكثر ائتلافا وانسجاما ، ثم جعل ـ سبحانه ـ بينهم مودة ورحمة حدثت عن طريق الزواج الذي شرعه ـ سبحانه ـ بين الرجال والنساء .

والذي وصفه ـ تعالى ـ بهذا الوصف الدقيق في قوله تـعـالـى :) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ((البقرة:187) . كل هذا وذاك دلالة على آية عظيمة تهدي إلى الرشد وإلى الاعتبار لقوم يتفكرون .

إنه بالرغم من هذه الآية الواضحة فإننا نرى الغرب يصعب عليهم أن يقفوا عند هذا الحلال القرآني فأباحوا الزواج بين الرجل والرجل وحللوا النكاح رسمياً بين المرأة والمرأة . فماذا كانت النتيجة ؟ إنها الهلاك والدمار .

ثانياً : يقول الحق سبحانه : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة:173) .

انظر مثلاً كيف كان التحريم القرآني لهذا الحيوان أي =الخنزير+ وكيف كان الإعراض عن هذا الهدى السماوي حين استباح الناس أكل لحم الخنزير واستمتعوا به ؟ ثم انظر كيف كان استبدال الأدنى بالذي هو خير ؟ حيث أن هناك لحوما طرية وغيرها من الأنعام التي أباح لنا الشرع ، قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ((النحل:14).

وقال تـعـالـى أيضـا : (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (الأنعام:142).

يقول أهل العلم ؟

=الغذاء يصير جزءً من جوهر المتغذي ولابد أن يحصل للمتغذي أخلاق وصفات من جنس مما كان حاصلاً في الغذاء+. والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات فحرم

أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ، ولذلك إن الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة في المنهيات وأورثهم عدم الغيرة ، فإن الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الأنثى التي له ولا يتعرض له لعدم الغيرة+، هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على هجران هذا القرآن .

وقال تعالي : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)(الفرقان:30) .

أما ما يقال ـ اليوم ـ من أن في الخنزير بعض الفيتامينات يصلح للإنسان فالجواب على ذلك أن نقول : =وفي الإيمان هناك ما يمكن فهمه وما لا يمكن فهمه فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لا ننتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه ، ولكننا نمتنع عنه بإيماننا بالله ما دام الله قد حرمه فقد أصبح حراما . ولذلك يقول رسول الله * : =ما عرفتم من محكمه فاعملوا به وما لم تدركوا فآمنوا به+.

والله سبحانه وتعالى يقول : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:7).

4- هجر تحكيمه والتحاكم إليه :

إنه ليُعَدُّ هجرانا للقرآن الكريم ما قام به أناس من استبدال أحكام الله القرآنية بأحكام أخرى فاتخذوا منها قوانين ظانين أنها تنظم حياتهم وتفض مشاكلهم فأفسدت عليهم الحياة وتعقدت بهم المشاكل حين تبعوا ما شرعوه من عند أنفسهم وشتان مابين قوانين سماوية قرآنية وبين قوانين وضعية .

إن منبع القوانين السماوية القرآن الكريم الذي نزل من عند الله خالق الإنسان والعليم بما هوصالح له في الدين والدنيا ، قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:14).

أما منبع القوانين الوضعية العقل الإنساني القاصر عن إدراك الحقائق على حقيقتها ، ألا ترى أيها القارئ أن لا سبيل إلى النجاح حين هجر الناس القرآن الكريم في تحكيمه وتمسكوا بأحكام وقوانين من أجل سياسة هذا الكون فسموا هذه القوانين بما يأتي :

1- الحكومة الثيوقراطية .

2- الحكومة الدكتاتورية .

3- الحكومة الديماغوغية .

4- الحكومة الارستقراطية .

5- الحكومة الوارثية .

6- الحكومة الديمقراطية .

إلا أن القرآن تجاوز كل هذه القوانين والنظم إلى وضع الأسس الكاملة التي تقوم عليها الدولة ، فالخلافة بيعة . . . والأمر بين الناس شورى . . . والناس جميعا سواسية . . . وكل المسلم على

المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وحريات الناس مصونة ... ورقابتهم على الحكام مشروعة .

لا شك أن القرآن الكريم هو القانون الذي ينبغي أن يزن للناس أعمالهم : أحلال أم حرام ؟ ، أصحيح أم فاسد ، ولكن للأسف الشديد أن اتخذوا هذا القرآن مهجورا .

5- هجر الاستشفاء والتداوي به :

وأود أن أضيف شيئاً آخر كان الناس يعرضون عن الانتفاع به في هذه الحياة ألا وهو الاستشفاء بهذا القرآن الكريم ، أما وقد قال تعالى :(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)(الإسراء:82) .

ويقول الحق سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (يونس:57).

من هنا يُطلق على القرآن الكريم أنه الدواء الشافي من كل ما يؤذى ، والشفاء القرآني كما يفهمه العلماء يصلح للأمراض النفسية أو القلبية ثم الجسمانية أما كون القرآن شفاء للأمراض القلبية نجد ذلك عند الوسوسة والقلق والحيرة والنفاق والحسد والطمع والانحراف عن طريق الحق ، وما أشبه ذلك من الرذائل المختلفة .

والقرآن ـ أيضاً ـ شفاء يداوي به الأمراض الظاهرة واستدل بعض العلماء لذلك بحديث النبي * الذي رواه لنا أبو سعيد الخدري : قال : =بعثنا رسول الله * في سرية ثلاثين راكبا . قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا . قال : فلدغ سيد الحي ، فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يرقى من العقرب ؟ قال : قلت : أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاه ، قال : فقرأت عليه الحمد لله رب العالمين سبع مرات فبرئ .

فبعثوا إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاه . فأكلنا الطعام أنا وأصحابي فأبوا أن يأكلوا من الغنم حتى أتينا رسول الله * فأخبرته الخبر فقال : =ما يدريك أنها رقية+ ؟ قلت يا رسول الله ، شيء ألقى في روعي . قال : =كلوا وأطعمونا من الغنم+(9).

من هنا تتجلى قيمة القرآن

إنه ومن الأدلة على قيمة هذا الكتاب أمور

الأول

أن الله تعالى تكفل بحفظه

فهو محفوظ بحفظ الله من الزيادة والنقصان . روى القرطبي بإسناده إلى يحيى بن أكثم قال : كان للمأمون وهو أمير إذ ذاك مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي ، حسن الثوب ، حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما تقوض المجلس دعاه المأمون ، فقال له : اسرائيلي ؟ قال : نعم ، قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده ، فقال : ديني ودين آبائي ، وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ، فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال : الست صاحبنا بالأمس؟ قال له : بلى ، قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت تراني حسن الخط . فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ ، فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتُريتْ منيَّ ، وعمدت إلى الأنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريتْ مني ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصْت وأدخلتها الورّاقين ، فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها ، فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي .

قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل! قال : قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والانجيل : (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُواوَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)
(المائدة:44) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل :) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر:9) ، فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع .

هنا ورد سؤال : لماذا ترك الله سبحانه وتعالى الكتب المنزلة على الأمم السابقة (التوراة والإنجيل والزبور و . . .) تحرف ولم تحفظ وحفظ القرآن ؟

أجاب العلماء بأن بني إسرائيل اعترضوا على حكم الله وتعّنتوا مع الأنبياء وتشددوا وقتلوا الأنبياء وقالوا : سمعنا وعصينا ، قال تعالى :) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة:93).

وقالوا : لما كانت الأمة المحمدية خير أمة لخضوعها لأمر الله وعدم اعتراضهم على أمره تعالى بل قالوا سمعنا وأطعنا (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة:285).

وهذا بخلاف بني إسرائيل الذين قالوا سمعنا وعصينا ، لذا تولى ربنا تبارك وتعالى حفظ كتابه بنفسه والدليل على ذلك : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)((الحجر:9).

الثاني

إجراءات حفظ القرآن بين السماء والأرض

إن مما يستدل به على عظمة القرآن وقيمته إغلاق أبواب السماء قُبيلَ نزول القرآن إلى الأرض ، وقد جرت هذه العملية منعاً للشياطين الذين يسترقون الخبر من السماء وصونا لهذا القرآن حتى لا يلتبس كلام الله الخالق مع كلام من دونه من المخلوقات .

روى الإمام البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهماقال : =انطلق رسول الله * في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم؟ فقالوا : ماحبل بيننا وبين خبر السماء إلا حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله * بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحدا+ بل أنزل الله على نبيه * سورة الجن .

قال تعالى :) قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْرَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا((الجن:1-12) .

تلك هي العمليات التي اتخذها الله سبحانه من أجل القرآن وقيمته وجلالته على حين قد ترك الله تعالى كتب السابقين تحرف وتبدل بسبب طغيانهم وعصيانهم .

إننا ـ وقد رأينا المولى عز وجل يعتني بالقرآن بعد نزوله على قلب سيدنا رسول الله * . اسمع قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج:52).

ولولا أن تكون العناية الكبرى ترعى هذا القرآن الكريم لتتدخل في نصوصه الطاهرة بعض الكلمات المصطنعة ، ونحن نورد هنا للقارئ مدى هذه العناية عند تعليق العلماء حول هذه الآية المذكورة .

قصة الغرانيق وما قدم لها العلماء من تعليق

أصل هذه القصة حادثة وقعت للنبي * في مكة في بداية الدعوة ، أنه حين أوحيت إليه سورة النجم قرأها على جمع من المسلمين والمشركين ، فلما بلغ أخرها حيث يقول الله تـعـالـى : (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) (النجم:59-62) سجد النبي * ، وسجد معه جميع من حضر من المسلمين والمشركين ، إلا رجلين اثنين : أمية بن خلف ، والمطلب بن وداعة .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : =أن النبي * سجد بالنجم . وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس+ رواه البخاري (1071) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : =أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) قال : فسجد رسول الله * ، وسجد من خلفه ، إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيت بعد ذلك قُتل كافرا ، وهو أمية بن خلف+ رواه البخاري (3972) .

جاءت بعض الروايات تفسر سبب سجود المشركـين مـع النبي * ، وسبب استجابتهم لأمر الله تعالى ، حاصلها أن الشيطان ألقى في أثناء قراءته كلمات على لسان النبي * فيها الثناء على آلهتم ، وإثبات الشفاعة لها عند الله ، وهذه الكلمات هي : =تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى+ وأن المشركين لما سمعوا ذلك فرحوا واطمأنوا وسجدوا مع النبي * .

والغرانيق : جمغ غرنوق وهـو طـير أبيض طويل العنق . سمى بذلك لبيـاضـه ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل ، وتشفع لهم إليه فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء(10).

يقول العلماء : فكانت هذه القصة سبب نزول قوله سبحانه وتعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج:52).

وإلى تعليق العلماء :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا القول في منهاج السنة النبوية(11) =على المشهور عند السلف والخلف من أن ذلك جرى على لسانه ثم نسخه الله وأبطله+ أنتهى .

وبعد تتبع الآثار الواردة في هذه القصة . تبين أن مجموع السلف الذين يُحكى عنهم هذا القول يبلغ نحو ثلاثة عشر ، وتبين أنه لم يثبت بالسند الصحيح إلا عن خمسة منهم . وهم : سعيد ابن جبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وأبو العالية ، وقتادة ، والزهري .

أما الباقون فلا تصح نسبته إليهم ، لما في الأسانيد إليهم من ضعف ونكارة ، وهم : ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، ومحـمـد ابن كعب القرضي ، ومحمد بن قيس ، وأبو صالح ، والضحاك ، ومحمد بن فضالة ، والمطلب بن خطب(12).

إلا أن طائفة كبيرة من المحققين من أهل العلم . نفوا وقوع هذه القصة ، ولم يأخذوا بإثبات من ذكر من السلف ، واستدلوا على ذلك بأن قالوا : من ذكرها من السلف لم يدركوا النبي * ولم يذكروا مصادرهم للحادثة ، فدخل الشك فيها ، وساعد عليه ما في ظاهرها من طعن في النبوة ، إذ كيف يدخل الشيطان في الوحي كلماته الباطلة ، مع أن الله تعالى حفظ وحيه من التحريف والتبديل والزيادة ، وعصمه من الخطأ والزلل .

يقول القاضي عياض في =الشفا+ (13) فأما من جهة المعنى : فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته * ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إمّا من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر ، أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام . وذلك كله ممتنع في حقه * .

أو يقول ذلك النبي * من قِبل نفسه عـمـدا ـ وذلك كـفـر ـ أو سهوا وهو معصوم من هذا كله . وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته * . من جريان الكـفـر على قلـبـه أو لسـانـه لا عمدا ولا سهوا ، أو أن يتشبه عليه ما يُلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله عمدا ولا سهوا ما لم ينزل عليه . وقد قال الله تعالى :(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ) (الحاقة:44).

وقال تـعـالى : (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) (الإسراء:75) انتهى .

وقد عدّ الشيخ الألباني في رسالته (14) أسماء عشرة من العلماء المتقدمين والمتأخرين في نفي صحة هذه الحادثة ، أكثرها يؤكدً نقي وجود السند المتصل المرفوع بها ، ومنافـاتـهـا لـعـصـمـة النبي * .

قالوا : المسألة فيها نوع اشتباه ، يصعب الجزم فيها بأمر ، ولكن يمكننا القول بأن الجزم ينفي هذه الحادثة فيها نظر ، وان اعتبارها منافية لأصول العقيدة ومهمات الدين فيه نظر ، أيضا ، فقد صحت القصة من طريق جماعة من السلف من قولهم ، وهي وإن كانت مرسلة ، فكثرتها تبعث على الاطمئنان بوقوعها ، ولو كان فيها شيء مناقض لعصمة الوحي لما نطق بها كبار آئمة التابعين كسعيد بن جبير ، وقتادة وغيرهم .

يقول الحافظ ابن حجر في فتح البارى في تخريجه ـ لهـذه القصة : كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا . . . ثم نقل تضعيف ابن العربي والقاضي عياض القصة ثم قال : وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد ، فإن الطرق اذا كثرت وتباينت مخارجها دلّ ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض . وليس في القصة أيّ طعن في عصمة التبليغ والرسالة لأن النسخ والتصحيح جاء بوحي من الله وسواء كان الخطأ من النبي * أو بإيهام الشيطان على أسماع المشركين ، فإن المال واحد ، هو وقوع الحق وزهوق الباطل ، والإخلال بمقتضى الرسالة لا يكون إلا باستمرار الباطل واختلاطه بكلام الله تعالى ، وذلك ما لم يكن ولن يكون+.

والخلاصة أن إثبات أصل القصة قول متجه ، وهو أقرب إلى التحقيق العلمي إن شاء الله ، والله أعلم .

ويبدو لنا من خلال أقوال العلماء حول هذه القصة أمران اثنان أو رأيان .

الأول : ينفى أصحابه إمكانية وقوع هذه القصة لما فيها من الأشياء التي تناقض عصمة الوحي .

والثاني : رأى أصحابه أن القصة ثابتة لأنها صحت من طريق جماعة من السلف ، والقصة بهذا لها أصل ، لأن الطرق اذا كثرت وتباينت مخارجها دلّ ذلك على أن لها أصلا .

تعليق التعليق

نأمل ـ هنا ـ ونودّ أن نتوسط بين مؤيّدي القصة ومعارضيها ثم نعلق على كلامهم هذا التعليق فنقول : إننا قد رأينا أن الغاية التي يهدف إليها الطرفان واحد وهو قيمة هذا القرآن الكريم لا غير . كيف يكون ذلك ؟

1-إن الذين نفوا هذه القصة كان مرادهم عند النفي أن يدافع عن هذا الكتاب العزيز الذي قال تعالى عنه : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:42).

لأن تلك الكلمات الواردة في الحديث : =تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى+. زائدة علي كتاب الله مع المعلوم ضروريا أن ليس من الإمكان وجود الزيادة في القرآن ولا النقصان ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله تعالى الذي تكفل سبحانه بحفظه فقال :(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9) .

من أجل هذا نفى أولئك العلماء أن تكون القصة ثابتة وفسروا الآية : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج:52) .

بهذا المعنى : وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول الكريم من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه ، ألقى الشيطان في معنى قراءته الشبه والأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبي .

أترى ما يعطى العلماء هذا القرآن من قيمة ومنزلة ، حيث إنهم نفوا عن القرآن تلك الزيادة المذكورة لأنها تقلل من شأن القرآن وتحلّ من قيمته فحينئذ لا يقال إنه كلام الله .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله * : =من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري أعطيته أفضل ثواب السائلين . وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه+ (15).

2- إننا قد رأينا العلماء الذين يثبتون قصة الغرانيق يتساوون مع إخوانهم في تقديس كتاب الله وإعطاءه المكانة المرموقة اللائقة به حتى وإن كانت تعبيراتهم تتباين وتتنافى .

عبارتهم شتى ترى المعنى واحدا

وكل إلى ذلك الكمال يشير

قالوا : ليس في القصة أيّ طعن في عصمة التبليغ والرسالة ، ذلك لأن الإخلال بمقتضى الرسالة لا يكون إلا باستمرار الباطل واختلاطه بكلام الله تعالى . وذلك ما لم يكن ولن يكون .

انظر ـ أيها القارئ ـ كيف فهم هؤلاء العلماء تلك الإجراءات التي اتخذها الله سبحانه من أجل ان تبقى آيات القرآن الكريم طاهرة نقية ذات قيمة غالية لا تشوبها شائبة ، ولا ترهقها فترة وإن من بين هذه الإجراءات ما يسمى بالنسخ والإحكام .

انهم قالوا : إن المولى عز وجل قام بإزالة هذه الكلمات : =تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى+ عن القرآن ثم بإحكام آياته أي تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبيه بعده إلا لمن رين قلبه .

قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحج:52).

إنه ومن وجهة نظر هؤلاء العلماء المثبتين للقصة نرى كيف اتخذ القرآن مكانته وقيمته عند الله سبحانه . ألا ترى أن بقية الكتب السماوية اختلطت بكلام غير الله واستمرّ بها الباطل إلى يومنا هذا ؟

بين إجراءات الحفظ ومحاولات التحريف

إن مما يستدل به على عظمة القرآن وقيمته حفظ القرآن فوق هذا الكوكب الأرضي والذي شاهدناه في واقعنا الذي نعيشه حيث يهرع إلى حفظ القرآن الكريم الكبير والصغير فليس هذا فحسب بل يبادر إلى حفظه الذين لم يتعلموا العربية ولم يعرفوا فيها كلمة واحدة .

يقول الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية (16) حفظه الله ورعاه لخدمة الدعوة الإسلامية =قد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح ولمحاولات الترجمة الخاطئة السيئة النية فلم تؤثر فيه ، ولمحاولة الطباعة المحرفة ، فبقى كما هو ، ولمحاولة تقليده ومحاكاته بسيء الكلام وركيكه فلم يزحزح عن مكانته بل إن كل ذلك أكد معجزته الباقية عبر الزمان ، وأعلى من شأنه في صدور الناس وكان لكل ذلك بالرغم مما اشتمل عليه من العدوان والطغيان سببا في تمسك المؤمنين به ، وبابا جديدا للدعوة إلى الله ودخول الناس إلى دين الله أفواجا . . إلى أن قال . . . فقد نزل القرآن بلغة العرب وظل محتفظا بلغته إلى يومنا هذا+.

الثالث

قيمة القرآن توجد في معجزاته

بالطبع إن الإنسان لا يقدِّر شيئا التقدير اللاحق به ، ولا يهتم بأمر إلا إذا عرف قيمته ووقف على أهميته ، لذلك نرى مجموعة من الناس ـ على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم وأجناسهم ـ ينساقون وراء إعجاز القرآن الكريم المنزل على خير خلق الله ثم يعترفون بفضل هذا الكتاب وينزلونه منزلته المرموقة .

القرآن الكريم له فصاحته وبلاغته التي تحدى الله بها أقحاح العرب وأرباب الفصاحة حتى قال أحدهم : (الوليد بن المغيرة) =والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطـم ما تحته+(17).

أما إعجاز القرآن للناس يأتي من وجوه عدة منها :

القرآن معجز في تشريعات سنها الله لعباده .

القرآن معجز لما فيه من حقائق علمية يؤكدها العلم كما تطورت البشرية .

ونحن نختار من بين هذه المعجزات الحقائق العلمية وهي إلى ناحيتين :

الناحية الأولى :

- المعجزة العددية :

انه ومن العلماء من يعتقد أن إعجاز القرآن إنما يكون ببلاغته ولغته وبيانه وليس بأرقامه ، ولكن القرآن هو كتاب صالح لكل زمان ومكان فلابد أن نجد فيه إعجازاً رقميا يتحدى كل علماء البشر في القرن الواحد والعشرين .

فالذين يظنون بأنه لا فائدة من الإعجاز الرقمي إنما هم بعيدون عن تطورات هذا العصر . ولو أنه لا فائدة من هذه الأرقام فلماذا كان الرقم سبعة هو الأكثر تكرارا في كتاب الله بعد الرقم واحد ؟

ولماذا عدد السماوات السبع وقد تكررت عبارة (سبـع سماوات ، السموات السبع) في القرآن كله سبع مرات بالضبط بعدد هذه السماوات ؟

لماذا تكررت كلمة (القبلة) سبع مرات في القرآن ، ونحن نعلم بأن الطواف حولها هو سبعة أشواط ؟ ونجد أن فاتحة الكتاب وهي أول سور المصحف الشريف تتكوّن من سبع آيات بما فيها البسملة ، وآخر سور المصحف الشريف هي سورة الناس تتكون أيضا من ستة آيات بغير البسملة .

ونجد كذلك في القرآن قد ذكرت كلمة لون سبع مرات بعدد ألوان قوس قزح ؛ ألوانه 4 مرات ، ألوانها مرتين ، ألوانكم مرةً .

إننا لو نظرنا إلى كلمة =الدنيا+ لرأيناها ترد (115) مرة وكذلك كلمة =الآخرة+ ترد (115) مرة .

- ولو نظرنا إلى كلمة =الملائكة+ لرأيناها ترد (88) مرة وكذلك كلمة =الشيطان+ ترد (88) مرة .
- ولو نظرنا إلى كلمة =الحياة+ لرأيناها ترد (145) مرة وكذلك كلمة =الموت+ ترد (145) مرة .
- ولو نظرنا إلى كلمة =الرجل+ لرأيناها ترد (24) مرة وكذلك كلمة =المرأة+ ترد (24) مرة .
- ولو نظرنا إلى كلمة =كيد الشيطان+ لرأيناها ترد (11) مرة وكذلك كلمة =الاستعاذة منه+ ترد(11) مرة .
- وكذلك رأينا كلمة =اليوم+ ترد (365) مرة .
- وكلمة =الشهر+ ترد (12) مرة .
- وكلمة =صلاة المسلمين+ ترد (5) مرات .

الناحية الثانية

- من حقائق علمية :

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء:30) .

أجل ، =لقد بلغ ذهول العلماء في مؤتمر الشباب الإسلامي الذي عقد في الرياض 1979م ذروته عندما سمعوا الآية الكريمة وقالوا : حقاً لقد كان الكون في بدايته عبارة عن سحابة سديمية دخانية غازية هائلة متلاصقة ، ثم تحولت بالتدريج إلى ملايين الملايين من النجوم التي تملأ السماء .
عندها صرح البروفيسور الأمريكي (بالمر) قائلاً إن ما قيل لا يمكن بحال من الأحوال أن يُنسب إلى شخص مات قبل 1400 سنة لأنه لم يكن لديه تليسكوبات ولا سُفن فضائية تساعد على اكتشاف هذه الحقائق فلابد أن الذي أخبر محمدا هو الله وقد أعلن البروفيسور (بالمر) إسلامه في نهاية المؤتمر+.

انظر أيها القارئ كيف اندهش هؤلاء العظماء ـ الذين أوتوا قسطا وفيراً من العلوم والمعارف ـ إلى الاعتراف بعظمة القرآن وقيمته . ومعلوم أنه لا يتحدى أهل صنعة إلا من هو أعظم منهم ،
فسبحان من قال :)قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا((الإسراء:88).

أيهما أكثر قيمة : القرآن أم الزمان ؟

الزمان أو الوقت هو أثمن وأنفس ما يملكه الإنسان ولا يمكن تقديمه أو تأخيره أو زيادته وهو إن ضاع لا أمل في عودته . يقول بعضهم :

ألاليت الشباب يعود يوما

فأخبره بما فعل المشيب

وما هذه الأزمنة أو الدقائق والثواني إلا العمر الإنساني ولقد كبرت هذه الأزمنة في نظرية أناس فاستعظموها وأعطوها ـ خطأ ـ حق الإماتة والإحياء , وقد حكى لنا القرآن الكريم هذه النظرية في آية قال الله تـعـالـى فيها : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية:24) .

كما أوضحتْ الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية العديد من خصائص وأهمية الوقت ، يقول تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) (الفرقان:62) .

يقول النبي * : =لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم ؟+. رواه الترمذي .

إن الإسلام ـ إذن ـ ينظر إلى الزمان نظرة أكثر سموّاً وعدلا وصدقا من هولاء الدهريين ، فجاءت شعائره الدينية وآدابه التي تؤكد قيمة الزمن . فحينما يتصدع الليل والنـهـار ، قـال تـعـالـى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ((هود:114) .

وفي شهر رمضان من كل عام وحين يبزغ الهلال نرى المولى عز وجل يفرض على الأمة صيامه وقال جل جلاله : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:185) .

وبمجرد انتهاء شهر رمضان أتبعه الله تعالى فريضة أخرى وقال سبحانه وتعالى :(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة:197) .

وبجانب هذا وذاك فريضة الزكاة التي تجب كل عام وعند كل حصاد ، لذلك قال تعالى :(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ لْمُسْرِفِينَ)

(الأنعام:141) .

وقفة يسيرة

لا شك أن الزمان مما تشهد له الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أنه هو الحياة فيجب على الإنسان أن يعرف قيمة الوقت الذي هو عمر الإنسان ولكن ننصح ـ هنا ـ أمتنا الإسلامية الذين يعتقدون قداسة الزمن ويعظمون الوقت أكثر من اللازم, إنهم اتخذوا شهر رمضان كعاملة مؤثرة في حياتهم وبعد مماتهم ، مستدلين بما قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(البقرة:185).

يقول العلماء بيانا عن هذا الشهر المبارك وكشفا عن هذا الغموض الفكري :

- إنه الشهر التاسع في ترتيب الشهور القمرية التي هي من عند الله تعالى وهي اثنا عشر شهرا من يوم خلق السموات والأرض وعلى الترتيب الذي أنشأه سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

قال تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة:36) .

- وهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن . (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر:1) .
- وهو الشهر الذي إبتُعث الله فيه نبيه وخليله وخاتم رسلـه محمدا * .
- جاء في السيرة العطرة :

عن أبي جعفر قال : =نزل الملك على رسول الله * بحراء يوم الاثنين سبع عشرة خلت من شهر رمضان ورسول الله * يومئذ بن أربعين سنة+.

- وهو الشهر الذي جعل الله تعالى منه إلى رمضان ما بـعـده كفارة .

يقول النبي * : =ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر+. رواه مسلم .

قلت : أرى أن أذكر المسلمين الذين اعتقدوا قداسة شهر رمضان الذي هو جزء من الزمن أن الشهور كلها ما هي إلا أيام وليال وكلها لا تنفع ولا تضر فالاعتقاد بـأن الأيـام أو الشـهـور أو الأعوام مؤثرات اعتقاد غير صحيح ، وعلى هذا نرى الحافظ الدمياطي نقد هذه الأبيات التي اعتقد الناس صحتها وها هي :

لنعم اليوم يوم سبت حقا

لصيد إن أردت بلا امتراء

وفي الأحد البناء فإن فيه

بدا الرحمَن في خلق السماء

وفي الاثنين إن سافرت فيه

تنبّـأ بالنجـاح وبالنجـاء

وإن رمت الحجامة فالثلاثا

فذاك اليوم مهراق الدماء

وإن شرب امرؤ يوما دواء

فنعم اليوم يوم الأربعاء

وفي يوم الخميس قضاء حاج

فإن الله يأذن في القضاء

ويوم الجمعة التنعيم فيه

وتزويج الرجال مع النساء

وهذا العلم لا يدريه إلا

نبي أو وصي الأنبياء

يقول مولانا الألوري (18) : =إن هناك أحاديث في فضائل الشهور والأيام في حد ذاتها ولكن للحوادث الواقعة فيها ولما ينزل الله فيها من رحماته وبركاته+.

بناءً على ذلك إن شهر رمضان بما فيه من حسن الصيام وفضل القيام كل ذلك من أجل نزول القرآن الكريم فيه .

إنه قد سئل رسول الله * عن صوم يوم الاثنين فقال * : =ذلك يوم ولدت فيه ويوم بُعثتُ فيه أو يوم أنزل عليّ فيه+. صحيح مسلم .

إذن ، إن الشرف أو الفضل أو المنزلة العالية والقيمة الغالية ليست لشهر أو زمن معين إنما هي من أجل القرآن الكريم الذي أنزل فيه .

يقول القائل

أمرّ على الديار ديار سلمى

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

القرآن ومهبط الوحي

لا جرم أن مكة المكرمة تُعد واحدة من أعظم وأكثر مدن الأرض وعواصمها مكانةً وشهرة . ولم تحظ أي مدينة في العالم بمثل ما حظيتْ به مكة من تكريم ، ويكفيها أنها مهبط الوحي الإلهي ، قال تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء:193-195).

إنه لشرف عظيم أن جعل الله سبحانه هذه البقعة أول مكان يعبد فيه من أبي البشر آدم عليه السلام . (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) (آل عمران:96).

إنها قبلة المسلمين بعد حين من الدهر . قال تعالى :(قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (البقرة:144).

ومكة المكرمة لها من الأسماء ما يأتي : =مكة+ ، =بكة+ ، =البلد الأمين+ ، =أم القرى+ ، =البيت العتيق+ ، =القرية+ ، =الوادي+ ، =البلدة+ ، =البلد+ ، =معاد+ .

1- مكة : قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الفتح:24) .

2- بكة : قال تعالى (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) (آل عمران:96) .

3- البلد الأمين : قال تعالى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ((التين:1-3) .

4- أم القرى : قال تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ((الشورى:7).

5- البيت العتيق : قال تعالى (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (الحج:29).

6- القرية : قال تعالى (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا) (النساء:75).

7- الوادي : قال تعالى (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ((إبراهيم:37) .

8- البلدة : قال تعالى (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ((النمل:91) .

9- البلد : قال تعالى) لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) (البلد:1-2) .

10- معاد : قال تعالى (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (القصص:85) .

إنه ومن الأحداث التاريخية الكبرى في عهد عبد المطلب محاولةُ أبرهة الأشرم تهديد أمن وسلامة هذا المكان الطاهر فتوجه هو وأصحابه نحو مكة المكرمة من أجل هدم هذا البيت وفي اللحظة الحاسمة تدخّلت العناية الإلهية فأرسل الله سبحانه وتعالى ـ دفاعاً عن هذه البقعة وعن بيته الكعبة المشرفة الطير الأبابيل .

قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)) (الفيل:1-5).

أما لو أنت تسألنا عن هذه العناية الكبرى بهذا البلد أم القرى فنتصدى بهذا الجواب : -

إن كون مكة المكرمة مهبطا للوحي من السماء جعل العناية الإلهية تتوجه إليها حتى لا تخضع يوما ، ولن تخضع لأي معتد غاشم .

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (الإسراء:45) .

قرآن يمشي على الأرض

إنه قد رأينا ـ هنا ـ أن نأتي إلى ختام هذا البحث ، ذلك لأن البحث قد ابتدأ بذكر الله وبالصلاة على رسول الله ، الذي جاء ختما للرسالات السماوية .

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب:40) .

يقول القائل : =به بختم الذكر الجميل ويبدأ+ .

كما رأينا في هدى النبي الخاتم * ، كيف كانت ـ أمنا أم المؤمنين السيدة عائشة صديقة بنت الصديق ـ تؤمى إلى عظمة القرآن وقيمته وذلك في حديث (19) واه الإمام مسلم .

عن سعد بن هشام ـ قال : سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق رسول الله * ، فقالت : =كان خلقه القرآن+ .

ومن منطلق هذا القول الرائع نسمع بعض الخطباء تجرى على ألسنتهم في اطلاق رسول الله * : =كان قرآنا يمشي على الأرض+ ـ أي مطبقاً لأحكام القرآن ـ إنه ومن أجل هذا نأتي هنا بتفصيل ما أجمل في هذا الحديث الشريف الدال على شمائل الرسول * وعلى فضائل القرآن وجلاله .

يقول العلامة الإنساني محمد أمين شيخو : =ليتساءل الناس في زمان ، كما تساءلت قريش قديما ومن عاصرها من الأقوام والقبائل من أين جاء هذا الرجل العظـيم والسـيد الكريـم رسول الله * بما جاء به من بليغ القول ، ورفيع الدلالة وسامي الأخلاق وعلى الشمائل والصفات ؟ يفوق بشجاعته الصناديد والأبطال ، ويبذ برأيه الثاقب وحسن تدبره الأمور ، أعظم الساسة وأكبر الحكماء ويبدو في علمه كأنه البحر الزاخر لا يقف عند حد وليس له انتهاء ويسمو بحلمه ورفقه ولطيف معاملته فوق كل ذي مكانة ومقام ـ فليس يستطيع أن يدانيه بشر ولا أن يدرك سموه وكماله إنسان .

رجل نشأ بأرض مقفرة لا أثر فيها لمعهد من معاهد العلم وفي جوٍّ لا مدارس فيه ولا علماء فيفوق في علمه كل عالم ويسمو بخلقه العالي على كل ذي خلق فاضل .

ويقارع بالحجة الدامغة كل معارض ومعاند فتتحطم أمام حججه كل مناقشة لها صلة بباطل وتزهق المعارضة وينبلج الحق ويلمع كالصبح السافر والكوكب الساطع في الظلام المدلهم الحالك ، فمن الذي بث في نفسه ما بث من سمو ؟ ومن أين له ذلك المقام وتلك العلوم والأحكام ؟+

انظر هذا العالم الكبير وتفصيله لما يحتوى عليه حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : =كان خلقه القرآن+، ثم انظر كيف يهدف هذا التحْليل منه إلى جلالة القرآن وعظمته وأنه كلام الله تعالى الذي استمدّ منه المصطفى الـكريـم جميع خصاله المحمودة ـ حقا كان خلقه * القرآن ، وكان ـ أيضاً ـ قرآنا يمشي على الأرض .

رحم الله صاحب البردة حين قال عن رسول الله * :

فـاق النبـين فـي خَلَـقٍ وفي خُـلّقٍ

فلم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس

غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم

من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تم معناه وصورته

ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم

منزه عن شريك في محاسنه

فجوهر الحسن فيه غير منقسم

دع ما دعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بفم

إن مما نستدل به ـ نحن على قداسة القرآن ونفاسته وعلى جلالته وقيمته أنه قد ثبت ـ علميا مقررا ـ لدى علماء البيان أن التعبير مثل ما في هذا الحديث : =كان خلقه القرآن+ يسمونه تشبيهاً بليغاً ، وهذا النوع ـ كما يقولون ـ أقوى من أنواعه ، لأنه قد تمّ فيه حذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح الأول كالثاني (20) في جميع الصفات .

وبتفسير أدق :

وكأن أمنا أم المؤمنين أرادت بهذا التعبير أن تصوّر ـ في محادثتها وإجابتها لهذا الصحابي الجليل السائل ـ مجملا من فضائل أو محاسن لها شـقـان ، شق نجد فيه عظمة هذا النبي الأمي * الذي تحلَّى بأخلاق حميدة يصعب ويستحيل للمخلوق أن يحيط بمقدارها . وصدق الله تعالى حين استعظم هذه الفضيلة وقال : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4) .

وشق آخر يتجلى فيه عظمة وقيمة كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه ، كتاب ليس ينال إعجاب الناس فحسب ، بل هو كتاب لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا : =إنا سمعنا قرآنا عجبا+.

إن المصطفى الكريم * مرآة لكتاب الله ، وأنت لا تعرف قيمة القرآن الذي كنا ندعو الأمة إلى معرفته إلا عن طريق وواسطة هذا النبي الأمي * ، قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران:31) .

يقول القائل :

وأنت باب الله أيّ امرئ

أتاه من غيرك لا يدخل

هذا معنى حديث أمنا أم المؤمنين رضوان الله عنها حين قالت : =كان خلقه القرآن+.

نستأنس فيما يلي ببعض أقوال العلماء حول ما كنا بصدده من التعبير والذي شرعنا في بيانه للجماهير وها هو : =كان النبي * قرآنا يمشي فوق الأرض+.

يقول العلماء :

إن من العلماء طائفة قالت : =القرآن كلام الله وليس بمخلوق ومحمد عليه الصلاة والسلام بشر مخلوق وما ينبغي أن نقول مثل هذا الكلام : (كان قرآنا يمشي على الأرض) حيث أن الكلام يشبه ما قاله المعتزلة : =القرآن مخلوق+.

وفي مقابل هؤلاء العلماء طائفة أخرى قالوا : =إن تشبيه الرسول * بالقرآن الذي يمشي على وجه الأرض لأنه يعمل بالقرآن عملا كاملا تاما حقّ وصدق وهو مصداق قول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله * : =كان خلقه القرآن+.

وكان من السلف من يلقب بالمصحف لحفظه وإتقانه ، ولم يدلّ هذا الكلام ولم يتضمن أن المصحف مخلوق .

روي ابن حبان بسند صحيح من كتاب الثقات (21) عن عبد الله ابن داود الحريسي أنه قال : كان مسعد بن كرام يُسمى المصحف لقلة خطائه وكثرة حفظه .

وفي تاريخ بغداد(22) قال أبو حفص عمر بن علي يعني الفلاس : كان الأعمش يسمى المصحف من صدقه . فالمراد بالمصحف هنا القرآن الكريم كما هو معلوم . وقد ورد في الحديث أن القرآن يأتي يوم القيامة في صورة رجل شاحب ولا يفهم منه أن القرآن مخلوق .

اللهم صل وسلم على النبي الذي محا الله تعالى عنه الأمية بكتابه القيم ، وبقرآنه الكريم فاصبح خلقه القرآن ثم صار * قرآنا يمشي على وجه الأرض .

مراجع البحث

- القرآن الكريم .
- صحيح الإمام البخاري .
- صحيح الإمام مسلم .
- المستدرك للحاكم النيسابوري .
- سنن الداوي .
- مسند الإمام بن حنبل .
- نسيم الصبا في أخبار الاسلام وعلماء بلاد يوربا للشيـخ آدم عبد الله الإلوري .
- النبأ العظيم لمحمد العريفي .
- بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي .
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي .
- مناقب الإمام أحمد للإمام ابن الجوزي . رحمه الله .
- صفوة التفاسير لمحمد بن علي الصابوني .
- من نبيك ؟ هو سيدنا محمد المصطفى * ، للدكتور علي جمعة ، مفتي الديار المصرية .
- الإسلام وتقاليد الجاهلية ، للشيخ آدم عبدالله الإلوري .
- كتاب الثقات لابن حبان .

الـهوامش

(1) النبأ العظيم ، جزء 1/42 .

(2) أقصر سور القرآن : ، وأطولها سورة البقرة .

(3) بصائر ذوي التمييز .

(4) انظر نسيم الصبا فـي أخـبـار الاسـلام وعلـمـاء بلاد يوربا للشيخ آدم عبد الله الالورى ، صـ42 ، 43 مكتبة وهبة ـ القاهرة .

(5) طرائف النساء .

(6) الجامع لأحكام القرآن ، ص 17 ، 42 .

(7) مناقب أحمد بن حنبل ، وسير أعلام النبلاء ، ج 11 ، ص 347 .

(8) صفوة التفاسير .

(9) رواه الامام البخاري رضي الله تعالي عنه .

(10) لسان العرب 10/286 .

(11) 2/243 .

(12) انظر : نصب المجانيق ، للشيخ الألباني .

(13) 2/126 .

(14) نصب المجانيق ، ص 46-48 .

(15) سنن الدارمى .

(16) كتاب من نبيك هو سيدنا محمد المصطفى * .

(17) رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه .

(18) الإسلام وتقاليد الجاهلية ، مكتبة وهبة ـ القاهرة .

(19) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(20) أي : المشبه والمشبه به .

(21) كتاب الثقات 7 / 508 .

(22) 11/9 .

من مؤلفات

الدكتور

الحاج سليمان فاروق













